الترجمة والتنمية اللغوية

نظرة بانورامية على مسار التنمية اللغوية في الوطن العربي

ا.د. يحي بعيطيش ، جامعة قسنطينة -1-

ملخص المداخلة

تحاول المداخلة أن تقدم نظرة بانورامية على مسار التنمية اللسانية في الوطن العربي ،من خلال مسار التنمية اللسانية في الوطن العربي؛ المسار اللساني النهضوي؛ المسار اللساني المعاصر؛ الكتابات اللسانية التمهيدية؛ الكتابات اللسانية التراثية؛ كتابات حول لسانيات اللغة العربية؛ الاتجاهات اللسانية في الوطن العربي؛ الاتجاه البنيوي؛ الاتجاه التوليدي التحويلي؛ و الاتجاه الوظيفي.

مقدمة

لا يختلف اثنان ينتميان إلى عصر العولمة في وقتنا الراهن، على أن الترجمة كانت ولا تزال منبعا ثرا لازدهار العلوم في جميع التخصصات،وعاملا أساسيا من عوامل التنمية في جميع المجالات العلمية واللغوية والأدبية والفنية؛ ولا أدل على ذلك من أن رواد الفكر والأدب وأساطين النقد وعلماء اللغة الكبار كانوا مترجمين من الطراز الأول ، ولم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من نظريات وإبداع إلا من خلال الاحتكاك المباشر بالحضارات والثقافات التي تفاعلوا بها وترجموا منها وإليها.

وبذلك شهد العصر الحديث نمو وازدهار المذاهب الفكرية والأدبية والنقدية، وعرف المدارس اللغوية والنظريات النحوية ،إن في الحضارة الغربية التي نشأت فيها هذه المدارس والنظريات, أو في البيئة العربية مشرقا ومغربا،التي انتقلت إليها تلك التيارات الفكرية المختلفة، فتوطنت فيها وتأصلت وأصبحت جزءا لا يتجزأ من نسيجها الحضاري والثقافي .

وفي هذا السياق العام،يمكن أن نلقي نظرة بانورامية على التنمية اللسانية في الوطن العربي،التي كان أساسها الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية والترجمة منها، وذلك انطلاقا من اهتمامنا بقضايا الترجمة واللسانيات الحديثة، سواء في ظل مشروع الترجمة واللسانيات التي نتشرف برئاسته أو مشروع "حركة الترجمة في الجزائر إلى سنة 006 : المؤسسات والأعلام والجهود " الذي ننتمي إليه 1 ـ مسار التنمية اللسانية في الوطن العربي.

إن مسار التنمية اللسانية في الوطن العربي قد بدأ مع بداية النهضة العربية منذ نهاية القرن السابع[1] عشر،وتجسد في مسارين:

1 . 1 المسار اللساني النهضوي

انطلق هذا المسار في الفترة الممتدة مابين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين ، بكتابات وترجمات جيل الرواد من أمثال رفاعة رافع الطهطاوي(1801-1873) الذي دشن عصر الترجمة الحديثة من خلال إنشائه مدرسة الترجمة أو ما عرف بمدرسة الألسن لتدريس وتعليم اللغات الأجنبية (اللغة الفرنسية واللغة الإيطالية واللغة التركية والفارسية) [2] وترجم مع تلامذته ما يربو على المبادئ كتاب[3] ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: القانون المدني الفرنسي، ومسرحية مغامرات تيلماك (للويس أراغون)، وأحمد فارس الشدياق (1804-1887)[4] والأب انستاس الكرملي (1889-1949)[5] وغيرهم من رواد النهضة العربية الذين تعرفوا على النظريات الغربية والأفكار اللغوية الجديدة السائدة

عصرئذ عن طريق الاحتكاك المباشر، أوعن طريق القراءة والترجمة، حيث كانوا يتقنون اللغات الأوروبية كالفرنسية و الإنجليزية و الألمانية.

و الخلاصة التي يمكن إثباتها في هذا المسار أن التنمية اللغوية في هذه الفترة كانت تدور حول مستلزمات و شروط النهضة الفكرية العربية، و ترقية علوم اللغة العربية درسا و تدريسا حيث كان اهتمام الرواد منصبا على إحياء تراث اللغة العربية و تحسين ظروف تدريسها و دراستها، و إمدادها بالمصطلحات العلمية اللازمة لتساير المستجدات و تواكب التطورات في شتى مجالات المعرفة، و تنهض بمتطلبات عصر النهضة الجديد، فكانت هذه الغايات هي منطلقات الكتابات المجمعية الصادرة عن مختلف المجامع اللغوية العربية التي نشأت في دمشق سنة 1919 ومصر سنة 1932 وبغداد وعمان ودول المغرب العربي فيما بعد[6].

و يمكن أن نؤرخ لنهاية مسار الكتابات النهضوية بنهاية منتصف القرن العشرين بظهور أول مؤلف عربي في علم اللغة الحديث بكتاب علم اللغة للدكتور عبد الواحد وافي سنة 1942[7] .

1 . 2 المسار اللساني المعاصر

يتمثل في الإنتاج الفكري بصفة عامة و الإنتاج اللغوي بصفة خاصة الذي عكسته الكتابات اللغوية التي تستند نظريا و منهجيا إلى للمبادئ الأساسية و الأفكار الجديدة التي قدمتها النظريات اللسانية في مختلف اتجاهاتها الأوروبية و الأميركية، في إطار ما أصبح يعرف باللسانيات العامة، فقد

اطلع الكثير من اللسانيين العرب المعاصرين على اللسانيات العامة بمختلف فروعها في جامعات أوروبا و أميركا، و تأثروا بنظرياتها المختلفة، حيث برزت في كتاباتهم ميول و قناعات تابعة لهذه المدرسة اللسانية أو تلك، إن في أوروبا أو أميركا، و حيث أن هذه المدارس أفرزت نظريات ونماذج ارتبطت بمراحل زمنية محددة، فقد كان لكل مرحلة زمنية أو بالأحرى لكل نظرية أتباعها من اللسانيين العرب المتأثرين بواضعي تلك النظريات إذ تجسد هذا التأثر في إجراء بحوث أكاديمية (أطروحات دكتوراه) بصفة خاصة، طبقوها على اللغة العربية.

و برجوع هؤلاء اللسانيين إلى بلدانهم، انبرى معظمهم لتدريس اللسانيات باللغة العربية، و نشطوا في مجال الترجمة و التأليف وأشرفوا على العديد من البحوث العلمية في الدراسات العليا مما ساعد فعلا على إحداث تراكمات علمية و تنمية لغوية حقيقية يمكن إبراز ملامحها في التصنيف الموالي[8]:

1 . 2 . 1 الكتابات اللسانية التمهيدية

و نلمحها في الكتابات والمحاضرات والمؤلفات،ذات الطابع المدرسي التعليمي الهادف إلى تقديم اللسانيات في مبادئها و مفاهيمها و مناهجها بشكل مبسط قصد تيسير المعرفة اللسانية للقارئ العربي بصفة عامة، و الطالب الجامعي الذي يروم التخصص بصفة خاصة.

1 . 2 . 2 الكتابات اللسانية التراثية

وهي الكتابات التي دارت حول التراث اللغوي العربي القديم في شموليته (النحو الصرف البلاغة المعجم)، وغايته شرح التصورات اللغوية العربية القديمة و تأويلها وفق ما توصل إليه الفكر اللساني الحديث من خلال المقابلة و المقارنة لتبيان التشابهات و الاختلافات بينهما للتوفيق بينهما أو لإخراج الأفكار التراثية القديمة في حلة جديدة تعكس أصالتها و قيمتها العلمية التاريخية و الحضارية.

1 . 2 . 3 كتابات لسانيات اللغة العربية

و هي الكتابات التي اتخذت اللغة العربية موضوعا لها، باعتبارها نسقا بنيويا صوريا أو وظيفيا، يمكن وصفه و تفسيره في مختلف المستويات (الصوتي الصرفي المعجمي التركيبي الدلالي التداولي) المعروفة في التحليل اللساني، متوسلة بالمناهج اللسانية الحديثة كالمنهج المقارن أو التقابلي أو الوصفي أو الوظيفي أو التوليدي التحويلي ..هادفة من وراء ذلك إلى تقديم وصف جديد لبنيات اللغة العربية وفق ما توصل إليه البحث اللساني في عمومه، وما توصلت إليه أحدث النماذج في النظريات المعاصرة.

و لعل النتيجة المهمة التي نصل إليها بعد هذا الطرح الموجز، أن التنمية اللغوية في الوطن العربي عرفت بعد السبعينيات من القرن الماضي نموا كبيرا، كما وكيفا، وازدادت عمقا و اتساعا و انتشارا بين الدارسين المتخصصين و طلاب الجامعات و المثقفين، إن على مستوى الكتابات التمهيدية أو على مستوى الكتابات التراثية أو لسانيات اللغة العربية، كما ازدادت الترجمة اتساعا، و توسعت المفاهيم وتبلورت المناهج، و ازداد الإقبال عليها دراسة و تدريسا في جامعات الوطن العربي مشرقا و مغربا، خاصة في جامعات المغرب العربي التي أفرزت نخبة من اللسانيين الكبار الذين لم يكتفوا بمواكبة النظريات الغربية في أوروبا و أميركا، و إنما ساهموا في تعديل هذه النظريات وتطويرها[9] (كما سيتضح في مكان آخر من هذه الدراسة).

2 ـ الاتجاهات اللسانية في الوطن العربي

على العموم فإن الكتابات اللسانية السالفة الذكر، سواء كانت تمهيدية تعريفية أو تراثية أو لسانيات لغة عربية، أطرتها ثلاثة اتجاهات معاصرة ظهرت كلها في الثلث الأخير من القرن الماضي، خصوصا بعدما تبلورت المناهج اللسانية الحديثة و نضجت، حيث ظهرت مشاريع نظريات نحوية معاصرة استوحى بعضها المنهج البنيوي و تمثل بعضها المنهج التوليدي التحويلي و اتخذ بعضها الآخر المنهج الوظيفي يمكن أن نلخصها مرتبة كما يلي[10]

1.2 اتجاه بنيوي (أو مرحلة البنيوية):

تمثله الكتابات والدراسات و المؤلفات المتأثرة بالبنيوية، ابتداء من السبعينيات من القرن الماضي ولا تزال بعض ملامحها سائدة إلى يومنا هذا. وقد تأثرت بها الكتابات التمهيدية و التراثية ولسانيات اللغة العربية سلبا وإيجابا، حيث برزت ضمن هذا الاتجاه الأول كتابات لسانية، أفرزت رؤى و أفكارا دعت إلى استيحاء واستثمار مبادئ المنهج البنيوي، و طرحت مواقف متباينة من التراث اللغوي بصفة عامة و النظرية النحوية القديمة بصفة خاصة، تراوحت بين الانفعال و الغلو، و التزام نوع من الاعتدال و الوسطية و يمكن أن نميز في هذا الاتجاه بين اتجاهين أساسيين:

1.2.1 اتجاه سلبي من التراث

يمثل أفكار وآراء من سموا بالوصفيين أمثال أنيس فريحة[11]، ريمون طحان[12]، ، مرورا ببعض آراء مهدي المخزومي[13]، و إبراهيم السمرائي[14]، الانفعالية المتطاولة على نحاة المدرسة البصرية بصفة عامة و نظرية العامل بصفة خاصة.

2 . 1 . 2 اتجاه إيجابي مدافع التراث

يرى أصحابه أن أي محاولة لتأسيس أي نظرية لغوية أو نحوية معاصرة يجب أن تنطلق من إعادة قراءة أعمال اللغويين القدامى، و من هؤلاء عبده الراجحي[15]، وعبد السلام المسدي[16]و نهاد الموسى[17]، و تمام حسان الذي تمثل كتاباته مشروعا شبه مكتمل لنظرية نحوية بنيوية، ضمنها بعض كتبه[8]، وخاصة الدكتور عبد الرحمان حاج صالح في دعوته إلى تأسيس مدرسة خليلية حديثة[19]، تستلهم نظريتها أعمال الرعيل الأول من جيل النحاة الأوائل المبدعين، و على رأسهم الخليل و تلميذه العبقري سبويه، وقلة ممن نحوا نحوهما.

و ممن ذهبوا هذا المذهب، في هذا الاتجاه نفسه، محمد الشاوش[20]، حيث ذهب في تأييده للنظرية النحوية القديمة مذهبا بعيدا، سواء من حيث الطرح الفكري الذي أسس عليه نظريته، أو من حيث طبيعة النظرية التي استلهمها، فهو ينطلق من مسألة مبدئية في نظره مفادها أن نعت النحو العربي بأنه تراث قديم، يستدعي مراجعة متصفحة تنتهي بالمتمحِّص المتفحِّص إلى الاحتراز الشديد من استعمال القيدين "قديم"، "حديث" عندما يتعلق الأمر بالنظرية النحوية العربية، لأنها قابلة لأن تقارن بمختلف النظريات النحوية و اللسانية في أي زمان، و بالتالي فهي قادرة على إمدادنا بأحدث النظريات اللسانية أو النحوية، كنظرية نحو النص التي أسس لها انطلاقا من النظرية النحوية القديمة.

2 . 1 . 2. اتجاه توليدي تحويلي

وتمثله كتابات داود عبدة في الأردن، ومشال زكريا في لبنان، وخليل عمايرة في مصر، ومازن الوعر في سوريا، لكن أنضج هذه الكتابات تقديما وتعريفا وتنظيرا هي كتابات الدكتور الفاسي الفهري في المغرب، سواء تعلق الأمر بكتاباته التمهيدية التعريفية أو بكتاباته التنظيرية التي شكلت نواة مشروع نظرية نحوية عربية مكتملة، مستلهمة الإطار العام لنظرية النحو التوليدي التحويلي بصفة عامة، ونموذج النظرية المعجمية الوظيفية التي يتزعمها بريسنن (Joan Bresnan) و كابلن(Ronald Kaplan) بصفة خاصة، و كان من القلائل الذين لم يكتفوا بمواكبة مستجدات هذه النظرية ، بل كان من المساهمين في تطويرها و إغنائها[21].

2 . 1 . 3 اتجاه وظيفي

يمثله في العالم العربي نظريتان ناضجتان، أولاهما النظرية البنيوية الوظيفية للدكتور جعفر دك الباب[22] التي مزج فيها بين المفاهيم والمبادئ العامة التي تقوم عليها كل من نظرية ابن جني و نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني و نظرية الوجهة الوظيفية لماتزيوس (Vilhem Mathésius) الشيكي و تطوراتها لدى أكبر تابعيه (دانيش"F. Danes" و فيرباس" J. Firbas")، و هي كما يلاحظ تمزج بين الأصالة و المعاصرة، كانت منتوج قراءاته المعمقة للتراث النحوي العربي ودراسته في جامعة موسكو أين اطلع فيها على الدراسات اللغوية الروسية، و على أبحاث المستشرقين الروس و الشيكيين التي ترجم بعضها إلى اللغة العربية[23].

ثم نظرية النحو الوظيفي لسيمون ديك[1] التي اتخذها الدكتور أحمد المتوكل إطارا نظريا ،منذ سنة 1985، التي حاول من خلالها أن يرسم معالم واضحة لنظرية وظيفة جديدة للنحو العربي، أجرى من خلالها عدة أبحاث ناضجة (معجمية، دلالية،

تركيبية، تداولية)، فرضت نفسها على الساحة العربية مغربا ومشرقا، فضلا عن إشرافه وتوجيهه للعديد من البحوث الأكاديمية النظرية و التطبيقية، و تكوين العديد من اللسانيين النوعيين في جامعات المغرب، كما امتد إشعاع نظرية النحو الوظيفي التي طورها بأصالة واقتدار، إلى العديد من البلدان المغاربية (تونس و الجزائر)، وبعض دول المشرق العربي [24].

ولعل ما يحسن الاختتام به في هذا السياق أن هذه النظرية هي التي شكلت محور اهتمامنا في أطروحتنا للدكتوراه[25]، حاولنا فيها ضبط بعض القضايا و إجراء بعض التعديلات و التحسينات على الصعيدين النظري و التطبيقي،كما شكلت محورا لعدة أبحاث علمية تطبيقية مست مجالات مختلفة كالتعليمية و النقد الأدبي و النحو العربي و التعريب و الترجمة، نشر أغلبها في مجلات علمية محكمة وطنية[26] و دولية[27].

هوامش البحث

1- حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ،نشر المكتبة البولسية، ط 10 بيروت لبنان 1980، ص.895 وما بعدها.

2- ينظر التفاصيل في " حنا الفاخوري ،المرجع نفسه، صص: 884-929

3- الترجمة في الوطن العربي: بحوث الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، بيروت لبنان 2000 ، ص. 90

4- من ترجمات الشدياق: شرح طبائع الحيوان عن اللغة الإنجليزية ، وكنز اللغات ، وهو معجم ثلاثي اللغة: عربي- فارسي- تركي

5- انستاس الكرملي: حقق معجم العين،وكان عضو المجلس العلمي بدمشق سنة 1920 وعضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1932.

6- ينظر التفاصيل في : الترجمة في الوطن العربي، مرجع سابق .

7- علي عبد الواحد وافي : علم اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط1 مصر 1940

8- ينظر مصطفى غلفان :اللسانيات العربية الحديثة : دراسة نقدية في المصادر والأ سس النظرية والمنهجية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحسن الثاني عين الشق ، المغرب ، د ت

9- نفسه، ص. 238 و ص. 274.

10- يحي بعيطيش: نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه دولة مرقونة مكتبة جامعة قسنطينة 2006 المقدمة، صفحات: ج ، د،

11- ينظر أنيس فريحة : في اللغة العربية وبعض مشكلاتها ، دار النهار للنشر والتوزيع ، ط1 بيروت لبنان 1966

12- ينظر ريمون طحان : الألسنية العربية 1 و 2 دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1972

13- ينظر مهدي المخزومي : في النحو العربي:نقد وتوجيه ، منشورات المكتبة العصرية ط1 بيروت لبنان 1964

14- ينظر إبراهيم السمرائي : الفعل : زمانه وأبنيته ، مؤسسة الرسالة ، ط4 بيروت 1986

15- ينظر: عبده الراجحي: النحو العربي و الدّرس اللساني الحديث: بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت 1979

16- ينظر عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس 1981.

17- ينظر: نهاد الموسى: نظرية النّحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، مكتبة وسام، عمان 1987.

18- ينظر كتبه: مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ط1، 1975؛ . اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة 1973.

19- ينظر مقالات و محاضرات الدكتور عبد الرحمن حاج صالح، و خاصة: - المدرسة الخليلية الحديثة و الدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي في: تقدم في الأقطار العربية: وقائع ندوة جهويّة، أبريل 1987، الرباط، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1991. – النظرية الخليلية الحديثة: مجلة اللغة و الأدب، ع: 10 رجب 1417 هـ، ديسمبر 1996، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر.

20- ينظر: بحث دكتوراه دولة للباحث: محمّد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحويّة العربيّة، تأسيس "نحو النّص"، منشورات كلية الآداب جامعة منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس 2001.

21- Anne Abeillé: Les nouvelles syntaxes, grammaires d'unification et analyse du français, Ed, Armand Colin, Paris 1993, pp. 41–97.

22- ينظر أهم أعمال وأبحاث الدكتور دك الباب في:. الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني(نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث).مطبعة الجليل.دمشق1980. نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع,ط1 دمشق1989. النظرية اللغوية الحديثة.منشورات اتحاد الكتاب العرب.دمشق 1996.

23- ينظر: غراتشيا غابوتشان : نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي ، ترجمة الدكتور جعفر دك الباب ، مطابع مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق 1400 هـ 1980 م.

24- ينظر : نعيمة الزهري : الاتجاه الوظيفي في الدرس اللساني العربي، وقائع ندوة مشتركة بين المغرب ومصر ، حول التفاعل الثقافي، الاتجاه الوظيفي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عين الشق الدار البيضاء .2002

25- ينظر : يحي بعيطيش : نحو نظرية وظيفية للنحو العربي ، مرجع سابق.

26 نذكر منها: شارك في الملتقى الدولي الأول حول استراتيجية الترجمة، جامعة السانيا–وهران، أيام 6-8 / 5 / 2001 ببحث "نحو استراتيجية لحل إشكالية المصطلح: المصطلح اللساني نموذجا" نشر بمجلة المترجم 03 أكتوبر/ديسمبر 2001 .

. وفي الملتقى الدولي السابع حول استراتيجية الترجمة، جامعة السانيا– وهران، أيام 8-9 /5/ 2006 ببحث عنوانه " الوظائف الإبلاغية والبلاغية في النص الإشهاري " ، نشر بمجلة المترجم، ع:.15 ديسمبر 2007.

. وفي الملتقى الدولي الأول حول الترجمة والعولمة / مخبر اللغات والترجمة /15-2004/5/17 بمداخلة موسومة ب "العولمة والعوربة" نشرت في المجلة العالمية للترجمة، ع: 03 منشورات جامعة منتوري قسنطينة 2008.

27- نذكر منها: الوظائف التداولية في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة ، مجلة علامات في النقد ع : 3-4 محرم 1423 هـ مارس 2002 جدة المملكة العربية السعودية.

. مساهمة في بعض مجالات نظرية النحو الوظيفي ،مداخلة قدمت في ندوة النحو الوظيفي واللغة العربية،جامعة الحسن الثاني أيام 13-2000/09/15 نشرت ضمن سلسلة ندوات ومناظرات رقم 16 منشورات جامعة الحسن الثاني ،الدار البيضاء المغرب 2005

. شارك في ندوة المنحى الوظيفي في اللسانيات العربية وآفاقه يوما 23/ 2007/24 جامعة مولاي إسماعيل مكناس بمداخلة موسومة ب " نحو أسلوبية وظيفية للنص الأدبي : النص الشعري نموذجا

نشرت ضمن أعمال ندوة المنحى الوظيفي في اللسانيات العربية وآفاقه رقم: 20 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، المغرب 2009